بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي

كليّة الآداب واللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

علم البلاغة العربية البيان والمعاني والبديع /ج2

دروس و أعمال موجهة في مادة: البلاغة العربية **تقديم الأستاذ:** عبد الرحيم عزاب

الأفواج: الأول و الثاني جذع مشترك.

Email : abderrahimazeb_alg@yahoo.fr

المجاز

تعريف المجاز: عرّف البلاغيون المجاز بأنه اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة (أو مناسبة) بين معناه الأصلي والمعنى الذي نقل إليه، مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي.

والعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي قد تكون علاقة مشابهة فيكون المجاز في هذا الحالة استعارة، فإن لم تكن العلاقة مشابهة كان المجاز مرسلا.

إذا أطلق لفظ المجاز قصد به المجاز اللغوي وهناك نوع آخر من المجاز يسمى المجاز العقلي ويكون في الإسناد، وسنقدم المجاز المرسل أولا ثم نورد بعده المجاز العقلي.

المجاز المرسل:

المرسل ضد المقيد، والمجاز المرسل هو ما لم تكن العلاقة فيه علاقة مشابهة (لأنه بذلك يصبح استعارة).

والمقصود بالعلاقة في المجاز: الأمر الذي يقع به الارتباط بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، أو هي وجه المناسبة بين المعنيين، كأن تكون علاقة جزء بكل، أو علاقة سب بمسبب، أو علاقة مجاور بما يجاوره.

وقد ذكر البلاغيون طائفة من العلاقات في المجاز المرسل أهمها:

علاقة السببية: وذلك أن يطلق لفظ السبب ويراد المسبّب (النتيجة) كقوله تعالى: (فمن شهد منك الشهر فليصمه) (البقرة: 185)، فالذي يُرى هو الهلال لا الشهر، ولكن لما كان الهلال سببا للشهر أطلق لفظ الشهر مرادا به هلاله.

ومنه قول الشاعر:

إذا نزل السحاب بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

Email : abderrahimazeb_alg@yahoo.fr

فالذي يُرعى هو العشب، ولكن عبّر عنه بلفظ السحاب لكونه سببا له.

علاقة المسبّبية: وذلك أن يذكر المسبّب ويراد السبب كما في قوله تعالى: (وينزل لكم من السماء رزقا) فلما كان الماء الذي ينزل من السماء سببا للرزق ذكر الرزق (وهو المسبب أو النتيجة) وأريد به سببه (وهو الماء).

علاقة الكلية: وذلك أن يطلق اللفظ الدال على الكل ويراد به جزؤه، كقوله تعالى متحدثا عن الكفار: (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت)، فالأصابع يراد بها الأنامل (أي رؤوس الأصابع) فعبر بالكلّ والمراد جزء منه.

علاقة الجزئية: وذلك أن يذكر الجزء ويراد منه الكل، وذلك كإطلاق لفظ الرقبة مرادا به الإنسان، في قوله تعالى: (فتحرير رقبة) (المجادلة: 3)، فلما كانت الرقبة هي موضع القيد في الحيوان، كانت الرقبة أخصّ في التعبير عن الحرية وعبّر بها (وهي جزء) وأريد الكل، (أي الإنسان المستعبد) ومن هنا كانت العلاقة كلية.

اعتبار ما كان: وذلك أن يعبر عن أمر ما بلفظ لا يدل على حالته الحاضرة، ولكن على حالة له سابقة، ومن نماذجه قوله تعالى: (وآتوا اليتامى أموالهم) (النساء: 2)، فالمعنى: وآتوا الذين كانوا يتامى أموالهم، لأن اليتيم في اللغة يطلق على الصغير دون الكبير.

اعتبار ما يكون: وذلك أن يطلق اللفظ على ما يصير إليه، ومن أبرز شواهده قوله تعالى على لسان صاحبي يوسف في السجن: (إني أراني أعصر خمرا)، فالذي يعصر في الحقيقة هو العنب لا الخمر ولكن لما كان مآل ما يعصر من العنب أن يصير خمرا، عبر عنه بلفظ الخمر دالا على العنب، باعتبار ما يصير إليه (إذا عصر).

الحالّية: وذلك أن يذكر ما في المحلّ والمراد المحلّ نفسه، كأن يقول الأعرابي البدوي: ضربنا خيامنا في الخصب، ومراده الأرض التي فيها الخصب.

Email : abderrahimazeb_alg@yahoo.fr

وكقول المسافر لصاحبه: كيف نترك الهدوء و نسكن الهرج والمرج، والمراد المكان الذي فيه الهرج والمرج. ومن الشواهد القرآنية على هذا لدى البلاغيين قوله تعالى: (إن الأبرار لفي نعيم).

فالمعنى – كما قال البلاغيون- : إن الأبرار لفي الجنة ذات النعيم.

ومنه قول المتنبي:

إني نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود

فالمعنى: إني نزلت بأرض قوم كذابين.

المحلّية: وذلك أن يذكر المحل والمقصود من هو حالّ فيه، كقول أبناء يعقوب لأبيهم: (واسأل القرية التي كنا فيها) (يوسف: 82).

فالمراد: واسأل أهل القرية، وكقوله تعالى: (فليدع ناديه) (العلق: 17)، فالمراد أهل النادي الحالّون فيه.

ومن هذا قولهم: سرق اللص البيت والمراد ما في البيت.

الآلية: وذلك أن تذكر آلة الشيء (أو أداته)، ويكون المراد ما يصر عنها أو ما هي أداة له، كإطلاق لفظ اللسان على اللغة التي هو آلتها، كما في قول موسى عليه السلام: (وأخي هارون هو أفصح مني لسانا) (القصص: 34) أي هو أبين لغة، ومن قبيله قوله تعالى: (فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) (الأنبياء: 61) أي على مرأى من الناس، إذ لما كانت الأعين آلة الرؤية وأداتها أطلقت عليها وعبر بها عنها.

المجاورة: وذلك أن يذكر الشيء والمراد ما يجاوره.

ومن أشهر شواهد هذا النوع قول عنترة:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

فليس مراد الشاعر أن يخبر مفتخرا عن ضربه ثوب خصمه بالرمح، ولكنّ مراده أنه شقّ جسم خصمه برمحه، فلمّا كانت الثياب تجاور جسم الإنسان، ذكرها الشاعر قاصدا بها ما تجاوره.

المجاز العقلي: هو إسناد الفعل (أو ما يقوم مقامه) إلى غير ما هو له في الظاهر لعلاقة ما، مع وجود قرينة تمنع من أن يكون الإسناد على حقيقته.

علاقات المجاز العقلي:

الإسناد إلى الزمان: نحو قول الشاعر:

من سرّه زمن ساءته أزمان

حيث أسند الشاعر الإساءة والسرور إلى الزمن، وليس فاعلهما الحقيقي.

الإسناد إلى المكان: كقوله تعالى: (وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم).

فأسند الجري إلى الأنهار والجاري ماؤها لا هي، وإنما هي مكان الماء الجاري.

الإسناد إلى السبب: وذلك أن ينسب الفعل إلى سببه لا إلى فاعله، كقول الشاعر:

إني لمن معشر أفنى أوائلهم قيل الكماة ألا أين المحامونا

الإسناد إلى المصدر: وذلك أن يسند الفعل إلى المصدر بدل إسناده إلى اسم الفاعل.

ومنه قول الشاعر أبي فراس:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

حيث أسند الجَد إلى الجِد، (أي الاجتهاد) وهو ليس فاعله، بل فاعله الجاد.

Email : abderrahimazeb_alg@yahoo.fr

إسناد ما بني للفاعل إلى المفعول (المفعولية): نحو قوله تعالى: (فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق) (الطارق: 5-6) أي: مدفوق، وكذلك قولنا: بيت عامر أي: معمور، وسم ناقع أي: منقوع، وحمى آمن أي: مأمون.

1. **إسناد ما بني للمفعول إلى الفاعل (الفاعلية)**: نحو قوله تعالى: (وجعلنا بين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أي حجابا ساترا.

ومنه قوله تعالى: (إنه كان وعده مأتيا) (مريم: 61) والمراد اسم الفاعل، أي: آتيا.

بلاغة المجاز وجماله:

المجاز عند البلاغيين أهم شعب الإيحاء، ذلك أن المعنى لا يقدم فيه مباشرة، بل من خلال وسائط يزدوج فيها المعنى، فيكون على المتلقي أن يتجاوز المعنى الحرفي إلى ما يوحي به ويومئ إليه، وإلى هذا يعزى الحسن الذي يرجع .كما قال عبد القاهر. إلى زيادة تحصل في أصل المعنى(55).

ولئن كان من المسلَّم به لدى البلاغيين أن المجاز أبلغ من الحقيقة، فإن تعليلاتهم لهذا الأمر تفاوتت؛ فمنهم من اكتفى بتقرير أفضلية المجاز كابن رشيق الذي قال: "والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعا في القلوب والأسماع، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالا محضا فهو مجاز، لاحتماله وجوه التأويل، فصار التشبيه والاستعارة وغيرها من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز"(56).

وذهب عبد القاهر أبعد من هذا حين جعل مزية أجناس المجاز كامنة في طريقة تقديم المعنى، وكونه زيد في إثباته تأكيدا وتشديدا وقوة(57)، ولكن هذا التعليل من عبد القاهر يبدو فيه التركيز على الإقناع أكثر من الإمتاع، فحديثه عن زيادة إثبات المعنى يشعر بالمنحى الخطابي في تعليله، ولأجل هذا وجدنا بلاغيا آخر هو محمد بن علي

(55) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص221.
(56) ابن رشيق، العمدة، 268/1.
(57) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص95، 96.

Email : abderrahimazeb_alg@yahoo.fr

الجرجاني يعقّب على كلام عبد القاهر منبها إلى أن مزيّة التعبير المجازي تكمن في أنه "أوقع في النفس وألذ في الطبع"[58]، وهذا التعليل أقرب إلى روح الأدب والفن، من الاقتصار في بيان بلاغة المجاز وجمالياته على الإثبات العقلي.

والتفت ابن الأثير إلى بعض التأثيرات النفسية للمجاز على المتلقي فقال: " وأعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال، حتى إنها ليسْمح بها البخيل، ويشْجُع بها الجبان، ويحْلم بها الطائش المتسرِّع"[59].

ووقف الرازي على بعض الجوانب النفسية لظاهرة المجاز، والانفعالات التي تحصل للمتلقي بسببه، فقال: "إن النفس إذا وقفت على تمام المقصود لم يبق لها شوق إليه أصلا... وإن لم تقف على شيء منه أصلا لم يحصل لها شوق إليه، فأما إذا عرفته من بعض الوجوه دون بعض، فإن القدر المعلوم يشوّقها إلى تحصيل العلم، بما ليس بمعلوم، فتحصل لها بسبب علمها بالقدر الذي علمته لذة، وبسبب حرمانها من الباقي ألم، فتحصل هناك لذات وآلام متعاقبة، واللذة إذا حصلت عقب الألم كانت أقوى، وشعور النفس بها أتم ... فلأجل هذا كان التعبير عن المعاني بالعبارات المجازية ألذّ من التعبير عنها بالألفاظ الحقيقية"[60]

وقريب من هذا ما ذكره السيوطي في المزهر من أن "التعبير بالحقيقة يفيد العلم، والتعبير بلوازم الشيء الذي هو المجاز لا يفيد العلم بالتمام فيحصل دغدغة نفسانية، فكان المجاز آكد وألطف وأبلغ من الحقيقة "[61].

إن الأسلوب المجازي يصل إلى غرضه في توكيد المعنى في النفس وتقريره وإثارة الانفعال المناسب فيها عن طريق إثارة التخييل المناسب لدى المتلقي وذلك بانتقاء الألفاظ الموحية ذات الدلالة التصويرية التي تهش لها النفس وتنبسط[62].

---

(58) الجرجاني محمد بن علي، الإشارات والتنبيهات، ص249، 250.

(59) ابن الأثير، المثل السائر، 73/1.

(60) عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص171.

(61) السّيوطي جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار الجيل بيروت، 36/1.

Email : abderrahimazeb_alg@yahoo.fr

والعدول عن الحقيقة إلى المجاز يشد نفس المتلقي إلى النص، حين يتجنب استعمال الألفاظ في دلالتها المألوفة، فإن كثرة استعمال الشيء في مورد معين والتردد عليه في ذلك مدعاة لتوليد سأم النفس وضجرها ونفرتها منه، ولو كان محببا إليها، وهذا أحد النواميس التي أودعها الله سبحانه نفس الإنسان[63].

ولما كان الناس في لغة تخاطبهم العادية يكثرون من استعمال الألفاظ في الدلالة على معانيها التي اصطلحوا عليها، فإن هذا الاستعمال (العادي) يورث الرتابة التي لا تحس النفس معها بالإقبال على هذا الاستعمال أو الشوق إليه، فكان الاستعمال المجازي قاطعا لهذه الرتابة في استعمال الألفاظ والعبارات مبعدا سأم النفس وضجرها مثيرا تشوقها وانفعالها[64].

كما أن مختلف ضروب المجاز لا تخلو من مبالغة بديعة ذات أثر في حسنه وجماله وخلابته وروعته.

62 ابن عبد الله أحمد شعيب : بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية، ص 136.
63 المرجع نفسه، ص 137.
64 المرجع نفسه، ص 138.

Email : abderrahimazeb_alg@yahoo.fr

الاستعارة:

الاستعارة في اللغة تعني طلب الإعارة، أي طلب شيء للانتفاع به على أن يرده المستعير إلى صاحبه بعد انتفاعه به.

أما الاستعارة عند البلاغيين فهي استعمال لفظ ما في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة مع وجود قرينة مانعة عن إرادة المعنى الموضوع له.

والاستعارة في حقيقتها تشبيه حذف أحد طرفيه (المشبه أو المشبه به) ولكنها أبلغ من التشبيه، فعندما ذكر القزويني مراتب التشبيه الثمانية جعلها تتدرج في القوة بحسب حذف عناصر التشبيه، إلى أن وصل إلى المرتبة الثامنة التي يفرد فيها المشبه به بالذكر[65] ، وهي مرتبة بين التشبيه والاستعارة، ومعنى ذلك أن الاستعارة تبدأ عندما يستنفد التشبيه إمكاناته المجازية، وعلى ضوء ما سبق يمكن أن ندرك علة جعل التشبيه أصلا للاستعارة، ولم عدت أبلغ منه، ذلك أن التشبيه يمثل الأصل الافتراضي الذي تنطلق منه الاستعارة، فتمثل بذلك أكثر صور التشبيه غرابة وعدولا.

وللاستعارة ركنان أساسيان هما:

المستعار له والمستعار منه.

المستعار له: هو المشبه.

والمستعار منه: هو المشبه به.

ومع هذين الركنين لابد لكل استعارة من **قرينة**، إما لفظية وإما معنوية، ومن **جامع** هو الأمر الذي سوّغ الجمع بين المستعار له (أي المشبه) والمستعار منه (معنى المشبه به).

أقسام الاستعارة: قسمت الاستعارة تقسيمات شتى باعتبارات شتى أهمها:

ـ باعتبار طرفيها (اجتماعا وافتراقا):

(65) القزويني، الإيضاح، ص227.

الاستعارة الوفاقية: وهي التي يمكن اجتماع طرفيها (المستعار منه والمستعار له) في شيء واحد، كقوله تعالى: (أو من كان ميتا فأحييناه) (الأنعام: 122)، حيث استعير الإحياء للهداية، والإحياء والهداية يمكن اجتماعهما معا.

الاستعارة العنادية: وهي التي لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد، كاستعارة اسم الميت للحي الجاهل الكافر كما في قوله تعالى: (أو من كان ميتا) (الأنعام: 122) فإن اسم الميت استعير للكافر، ولا يمكن أن يجتمع الكفر والموت في شخص واحد.

باعتبار الجامع:

الاستعارة العامّيّة (المبتذلة): وهي ما اشتهر على ألسنة الناس من الاستعارات كقولهم رأيت شمسا (للجميل)، ولقيت أسدا (للشجاع)، ووردت بحرا (للجواد).

الاستعارة الخاصية (الغريبة): وهي الاستعارة اللطيفة التي ارتفعت عن الابتذال والشيوع، ومن شواهد البلاغيين الشهيرة على هذا النوع قول طفيل الغنوي:

وجعلت كوري فوق ناجية يقتات شحم سنامها الرحل

فهي استعارة غريبة قلّما ينتبه إليها.

ومن الاستعارة الخاصية الغريبة أن يجمع بين عدة استعارات لإلحاق الشكل بالشكل كقول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

باعتبار الطرفين والجامع:

- **استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي:** نحو قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيبا) (مريم: 04) فالشيب والنار كلاهما حسي.
- **استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلي:** كما في قوله تعالى: (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) (يس: 37)

فسلخ الشاة وزوال الضوء عن ظلمة الليل كلاهما حسي، وأما الجامع بينهما فهو ترتب أمر على آخر، أي ظهور لحم الشاة عقب نزع الجلد وظهور الليل عقب زوال الضوء، وهو أمر عقلي.

- **استعارة محسوس لمحسوس والجامع مختلف:** ومعنى هذا أن يكون بعض الجامع حسيا وبعضه عقليا ومن أمثلة هذا النوع قول القائل: رأيت شمسا وهو يريد إنسانا كالشمس في الوضاءة والرفعة فالوضاءة أمر حسي، والرفعة أمر معنوي.
- **استعارة معقول لمعقول:** كما في قوله تعالى: (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) (يس: 52) حيث استعير الرقاد للموت، وكلاهما أمر معقول (غير محسوس).
- **استعارة محسوس لمعقول:** ومن شواهده قوله تعالى: (فاصدع بما تؤمر) (الحجر: 94)، فقد استعير الصدع الذي يكون في الأشياء المحسوسة لتبليغ الرسالة وهو أمر معقول.
- **استعارة معقول لمحسوس:** ويمكن أن نمثل له بقوله تعالى: (إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية)، حيث استعير معنى التكبر والطغيان (وهو عقلي) لارتفاع الماء، بجامع مجاوزة حد الاعتدال إلى مرتبة غير طبيعية.

الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية

الاستعارة التصريحية هي صورة من صور التشبيه الذي حذف منه المشبه وأطلق عليه اسم المشبه به، ومثال ذلك قول القائل: زرت بحرا زاخرا، وهو يقصد إنسانا كريما أو عالما، فإنه في الحقيقة شبه هذا الإنسان بالبحر، ولكنه لم يذكره واكتفى بذكر ما شُبّه به.

ومن نماذج الاستعارة التصريحية قول الشاعر يصف امرأة:

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

فقد استعار اللؤلؤ والنرجس والورد والعناب والبرد للدموع والعيون والخدود والأنامل والأسنان على الترتيب، وسميت هذه الاستعارة تصريحية لتصريحنا فيها باللفظ الدال على المشبه به.

ومن الاستعارات التصريحية في القرآن الكريم قوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) (إبراهيم: 1)، فقد شبه الكفر بالظلمات، والإيمان بالنور وحذف المشبه وأبقى المشبه به.

الاستعارة المكنية: وهي أن يذكر في الكلام لفظ المشبه، ويحذف المشبه به، ويشار إليه بذكر أحد لوازمه، كقول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فإنه شبه المنية بالسبع، ولكنه حذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه وهي "الأظفار".

ومن ذلك قول الشاعر:

ولئن نطقت بشكر ربك مفصحا فلسان حالي بالشكاية أنطق

حيث شبه الحال بإنسان، ولكنه طوى ذكره وأومأ إليه بأحد لوازمه وهو اللسان.

ومن الاستعارات المكنية في القرآن الكريم قوله تعالى: (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) (النحل: 91-92) فقد شبهت الأيمان (جمع يمين بمعنى الحلف) بالحبال، ثم حذف المشبه به (وهو الحبال) وذكر المشبه (وهو الأيمان)، ولكن أبقي على شيء من لوازم المشبه به هو النقض.

ومن الاستعارة المكنية في الحديث النبوي قوله صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمس) فقد شبه الإسلام بالبيت ذي الدعائم ولكن لم يذكره وإنما ذكر لازمه وهو البناء.

الاستعارة التحقيقية والتخييلية

الاستعارة التحقيقية: هي التي يكون المستعار له فيها أمرا محقّقا إما حسيا وإما عقلا.

فالتحقق الحسي كقول القائل: "رأيت أسدا" قاصدا به رجلا شجاعا، فهو أمر متحقق في الواقع.

والعقلي، أن يتصور العقل تحققه وإن لم يكن له وجود محسوس، كما في قوله تعالى: (اهدنا الصراط المستقيم) (الفاتحة: 6) فالصراط المستقيم مقصود به الإسلام، وهو أمر محقق ومتصور.

الاستعارة التخييلية: وهي ما كان المستعار له فيها متخيلا غير محقق، وذلك كإثبات الأظفار للمنية في قول أبي ذؤيب:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ومثل هذا إثبات الجناح للذل وغير ذلك.

الاستعارة المطلقة والمرشحة والمجردة

المطلقة: هي التي لم تقترن بما يلائم المشبه والمشبه به، نحو: (ينقضون عهد الله)، وكقول أحدهم يصف بخيلا: إنه سمين المال مهزول المعروف، فهي استعارة مكنية خلت مما يلائم المستعار منه والمستعار له.

والمرشحة: وهي التي قرنت بملائم المستعار منه (أي المشبه به) نحو: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم)، استعير الشراء للاستبدال والاختيار، ثم فرّع عليه ما يلائم المستعار منه من الربح والتجارة وبذا كانت المرشحة أبلغ من غيرها لما فيها من تناسي التشبيه وادعاء تماثل المستعار له والمستعار منه.

والمجرّدة: هي التي قرنت بملائم المستعار له (المشبه) نحو قول الشاعر:

فإن يهلك فكل عمود قوم من الدنيا إلى هلك يصير

فقد شبّه رئيس القوم بالعمود، ثم ذكر شيئا يلائم المستعار له (المشبه) في قوله: إلى هلك يصير.

ومنها أيضا قول ابن المعتز:

ما ترى نعمة السماء على الأر ض وشكر الرياض للأمطار

شبه الرياض بإنسان ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (شكر) ولكنه ذكر معه ما يلائم المستعار له (الرياض) وهو الأمطار.

الاستعارة التمثيلية: هي الاستعارة المركبة التي تقوم على تشبيه صورة بصورة، أو حادثة بحادثة أخرى، وقد جرى كثير من هذه الاستعارات مجرى الأمثال كقولهم: "الصيف ضيعتِ اللبن" لمن فرط في تحصيل أمر ثم طلبه بعد فوات أوانه.

وقولهم لمن يعمل عملا لا طائل منه: "هو يحرث في البحر".

ومن الاستعارة التمثيلية قول صالح بن عبد القدوس:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

ويضرب هذا المثل (الاستعارة) لمن يبدأ الإصلاح ثم يأتي غيره فيعمل ما يوجب نقض إصلاحه.

ويعد البلاغيون الاستعارة التمثيلية أبلغ أنواع المجاز إذ مبناها على التشبيه التمثيلي الذي وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدّد، ومن هنا كانت الاستعارة التمثيلية هيئة مركّبة أو قضية أو حادثة نشبهها بحالة أو حادثة أخرى ونستدعي الأولى ونبعث فيها الحياة كلما أردنا أن نثبت للواقعة الحاضرة صورة تماثلها.

بلاغة الاستعارة وجمالياتها

أدرك البلاغيون بحسهم النقدي أن الاستعارة تمثل أكثر أنواع البيان تلبية لمطالب الأدبية، وأهمها وفاء بما ينبغي للأدب من مجاز وإيحاء، وكان لعبد القاهر الجرجاني احتفاء خاص بالاستعارة، إذ رفع من شأنها وأراد أن يلفت الأنظار إلى قيمتها الفنية، فقال: "إذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة، ومعها يستحق

وصف البراعة، وجدتها تفتقر إلى أن تعيرها [الاستعارة] حلاها، وتقصر عن أن تنازعها مداها، وصادفتها نجوما هي بدرها، وروضا هي زهرها"[66].

وسبب هذه المزية، وهذا الفضل، هو قدرة الاستعارة الخاصة على التصوير والتخييل ونقل المشاعر والإيحاءات، "فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا والأعجم فصيحا، والأجسام الخُرس مُبِينة، والمعاني الخفية بادية جلية"[67]، كما يقول عبد القاهر، فهذه القدرة الفائقة للاستعارة على التشخيص والتجسيم ونقل المشاعر والإيحاءات يرافقها ويدعمها تكثيف للمعاني من خلال الإيجاز الذي تتميز به العبارة الاستعارية، فيكون ما توحي به من المعاني أوسع بكثير من لفظها، يقول عبد القاهر متحدثا عن هذا الأمر: "ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر[68] .

وقد أدرك القدماء أن مبنى الاستعارة على التشبيه من حيث إنه أصل لها، فهي تشبيه حذف أحد طرفيه ولكنها أعلى مقاما من التشبيه، لأنها أكثر تحقيقا لعملية الادعاء، وأكثر قدرة على إثبات المعنى المطلوب[69]، ولئن كان التشبيه أقرب إلى التقريرية والمباشرة، لاسيما في صورته الأولية، حيث يستخدم بجميع عناصره، فإنه يترقى في الأدبية حتى يبلغ درجة الاستعارة، وعلى ذلك تكون بداية الاستعارة عند أعلى مراتب التشبيه، ذلك أن الاستعارة تبنى على مبدإ المشابهة ولكنها في الوقت ذاته تتطلب تناسي هذا المبدإ، حتى تحقق ما ينبغي لها من توكيد ومبالغة وإيحاء، ولذلك وجدنا البلاغيين يقررون أن الاستعارة تزيد حسنا ورونقا كلما زدت التشبيه فيها إخفاء "حتى إنك تراها أعجب ما تكون إذا كان الكلام ألف تأليفا إن أردت أن تفصح فيه

(66) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص33.

(67) المرجع نفسه، ص33.

(68) المرجع نفسه، ص33.

(69) جابر عصفور، الصورة الفنية، ص232.

Email : abderrahimazeb_alg@yahoo.fr

بالتشبيه خرجت إلى شيء يحط من درجته ويضع من قدره"[70]، أي أن ما يعزى إلى الاستعارة من قيمة إنما هو في هذا التنائي عن مبدإ المشابهة فالاستعارة "من شأنها أن تسقط ذكر المشبه به وتطرحه وتدعي له الاسم الموضوع للمشبه به"[71].

إن ما تحققه الاستعارة وتزيد به على التشبيه هو ما سماه القدماء المبالغة، فـ "التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة"[72]، ويضيف عبد القاهر خاصية أخرى تحققها الاستعارة وهي الاختصار والإيجاز اللذين جعلهما غرضا من أغراضها"[73]، فإذا اجتمع في الاستعارة الإيجاز (في اللفظ) والمبالغة (في المعنى)، فإن هذا من أقوى أسباب الإيحاء، ومن هذا الجانب تتأتى خاصية الاستعارة الأساسية التي يربطها المعاصرون بالتكثيف، والتي يعدها عبد القاهر عنوان مناقبها، لأنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ.

ويمكن للدارس أن يلاحظ أن موقف بعض البلاغيين من تعليل بلاغة الاستعارة اتسم بنوع من التذبذب بين الانتصار لجانب الإقناع العقلي، والتركيز على جانب التأثير الوجداني، فرأيناهم يجعلون فضيلة الاستعارة في تأكيد المعنى وتشديده والمبالغة فيه، وهذا التأكيد يمكن أن يكون ذا طابع عقلي إقناعي، ويمكن أن يكون توكيدا يلتبس بالتأثير الوجداني، ولكن الرازي ينحو في تعليله لمزية الاستعارة منحى إقناعيا خالصا، حين يعد التشبيه مكونا من مقدمتين كل واحدة منهما مشكوك فيها، وأما الاستعارة فإن مقدمتها الثانية يقينية، و"الشك كلما كان أقل في المقدمات المنتجة، كانت الدعوى من القبول أقرب"[74]، وجعل الاستعارة برهانا عقليا بهذا الشكل يفقدها طابعها الإيحائي التخييلي، وخاصيتها الفنية.

---

(70) ابن الأثير، الجامع الكبير، ص84.

(71) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص210.

(72) المرجع نفسه، ص207، 208.

(73) المرجع نفسه، ص208.

(74) الرّازي، نهاية الإيجاز، ص163.

غير أن بعض البلاغيين أدرك أن الاستعارة لا يمكن أن تقتصر أغراضها على تقرير المعنى وتوكيده والإقناع به، بل أغراضها أكثر من أن تحصر، وقد ذكر منها العسكري التأكيد والمبالغة والإيجاز والحسن والتأثير(75)، فحديث العسكري عن المبالغة والإيجاز خاصة، هو إشارة إلى ما للاستعارة من أثر في الإيحاء والتخييل، من حيث إن الإيجاز يقتضي أن تكون المعاني المحصلة من اللفظ أكبر من بنيته الصوتية.

ويتجلى اهتمام البلاغيين بجماليات الاستعارة أكثر من خلال معالجتهم لبعض أنواعها التي لاحظوا أنها أكثر قدرة على التصوير والتشخيص.

من ذلك حديث الجرجاني عن الاستعارة النادرة كالتي في قول الشاعر:

وسالت بأعناق المطي الأباطح(76)

فهو يحاول أن يستشف ملامح الصورة الفنية التي يوحي بها هذا الشطر فيقول: "أراد أنها سارت سيرا حثيثا في غاية السرعة، وكانت في سرعة لين وسلاسة كأنها كانت سيولا وقعت في تلك الأباطح فجرت بها"(77).

كما ذكر ضمن هذا النوع أيضا قول الشاعر:

سالت عليه شعاب الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير(78)

فهذه الاستعارة توحي بأنه "مطاع في الحي وأنهم يسرعون إلى نجدته، وأنه لا يدعوهم لحرب أو نازل خطب إلا أتوه وكثروا عليه وازدحموا حواليه، حتى تجدهم كالسيول تجيء ههنا وههنا وتنصب من هذا وذاك، حتى يغص بها الوادي ويطفح منها"(79)، فهذه المعاني

---

(75) العسكري، الصناعتين، ص295.

(76) البيت في لسان العرب، مادة (طرف)، نسبه صاحب الوساطة إلى ابن الطثرية، ونسبته في الحماسة البصرية إلى عقبة بن كعب بن زهير، ونسبته في زهر الآداب إلى كثيّر. وأوله: أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا.

(77) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص97.

(78) نسبه القزويني إلى ابن المعتز، ولم أقف عليه في ديوانه .

(79) دلائل الإعجاز، ص97.

Email : abderrahimazeb_alg@yahoo.fr

كلها لم يصرح بها البيت بداهة، ولكن عبد القاهر استوحاها منه ومن الاستعارة التي تضمنها.

وأشار عبد القاهر إلى إيحاء الاستعارة المكنية في قول لبيد:

وغداةِ ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها(80)

فالشاعر أراد أن يثبت للشمال في تصريفها الغداة على طبيعتها شبه الإنسان قد أخذ الشيء بيده يقلبه ويصرفه كيف يريد، فلما أثبت لها مثل فعل الإنسان باليد استعار لها اليد(81)، و"مثل هذه الاستعارة تقوم على نوع من التشخيص تصعب معالجته من خلال تلك العلاقة الضيقة المفترضة بين المستعار والمستعار له، وإنما ينبغي أن يعالج من خلال مبدإ جوهري، يقدر طبيعة الفعالية الخاصة التي يمارسها الخيال الشعري"(82).

ومن بين طرق الإيحاء في الاستعارة، ما سماه البلاغيون الترشيح الذي مبناه على تناسي التشبيه، كما في بيت أبي تمام:

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماءِ

فلولا أن قصده أن يتناسى التشبيه ويصمم على إنكاره فيجعله صاعدا في السماء من حيث المسافة المكانية لما كان لهذا الكلام من وجه"(83).

ومن أنواع الاستعارات التي أشاد عبد القاهر بطاقتها الإيحائية الفائقة، ما سماه الاستعارة العقلية، حين يكون الشبه مأخوذا من الصور العقلية، كاستعارة النور للبيان،

---

(80) ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق: إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت، 1962، ص315.

(81) المرجع نفسه ، ص328.

(82) عصفور، الصورة الفنية، ص238، 239.

(83) القزويني، الإيضاح، ص258، 259، والبيت في ديوان أبي تمام، ص312.

Email : abderrahimazeb_alg@yahoo.fr

واستعارة الصراط للدين مبه ليس له هيئة أو صورة، كما قال الجرجاني، وإنما هو صورة عقلية[84].

وكما أن للاستعارة الحسية إيحاءها المعتمد على التجسيم والتصوير وبث الحياة والحركة في الجمادات، فإن للاستعارة العقلية إيحاءها أيضا، ولكنه إيحاء مختلف؛ لأن التشبيه فيه يؤخذ من الأشياء المعقولة في الأغلب، يقول عبد القاهر متحدثا عن الاستعارة العقلية: "هذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها، وههنا تخلص لطيفة روحانية، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية والعقول النافذة، والطباع السليمة[85]،فقوله: (لطيفة روحانية) إشارة إلى تلك الظلال التي تقترن بالاستعارة العقلية، وتثير ما تثير من إيحاءات وأخيلة في ذهن المتلقي.

وهكذا فإن الاستعارة أهم أشكال الإيحاء وصوره، وهي أقدر من التشبيه على التصوير والتخييل، ونقل المشاعر والإيحاءات، ولذلك كانت أعلى مراتب التشبيه هي أولى مراتب الاستعارة، وإذا كان التشبيه يحافظ على استقلال طرفيه، فإن الاستعارة قد تدمج طرفي الصورة محدثة نوعا من التفاعل الحي بينهما، وهو ما يعزز جمالياتها .

(84) ينظر:الجرجاني، أسرار البلاغة، ص49، 50.

(85) المرجع نفسه، ص50.

الأستاذ عبد الرحيم عزاب

بالتوفيق

Email : abderrahimazeb_alg@yahoo.fr